

الفصل الثاني عشر

بنو أمية (تابع ما قبله)

الإمبراطورية العربية حين وفاة هشام — قسوته نحو أقاربه — مقتل
خالد القسرى — ثورة يحيى بن زيد وموته — تأثيرها على أهل خراسان —
حالة أسبانيا — حسام (أبو الخطاب) حاكم الأندلس — خضوع جميع
الأحزاب — عدالته — تنصبه لليمانين — فتنة المضريين — موقعة
شقوندا — انتخاب ثعلبة — وفاته — انتخاب يوسف — فارس
الأندلس — وفاته — وصول عبد الرحمن حفيد هشام — هجوم
بيبين القصير — مذبحة المسلمين — حصار أربونة — الاستيلاء عليها —
زوال حكم العرب في فرنسا — أفريقيا — الفتنة على الوليد الثاني —
وفاته — خلافة يزيد الثالث — وفاته — تولية إبراهيم — قيام
مروان — موقعة عين الجر — فرار إبراهيم — اعتلاء مروان
عرش الخلافة

الإمبراطورية
العربية

لما توفي هشام سنة ٧٤٣ م كانت الإمبراطورية العربية في أوج عظمتها ،
ففي أوروبا كانت تبسط حمايتها على جنوبي فرنسا وأنحاء شبه جزيرة أيبيريا ،
ماعدا بعض الهضاب التي كان يعتمص بها رجال المصابات ، أما في البحر
الأبيض المتوسط فكانت تضم إلى جانب ممتلكاتها جزائر ماجوركا ومانوركا
وإيفيكا وكورسيكا وسردينيا وكريت ورودرس وقبرص وقسما من صقلية ،
وعدة جزر أخرى من جزائر الأرخبيل اليوناني ، كما كان يمتد سلطانها في
أفريقيا من بوغاز جبل طارق حتى خليج السويس ، وفي آسيا من جبل سينا
إلى هضاب المغول .

وبينا كانت المؤامرات الواسعة المدى تعمل على هدم نفوذ الخلافة في
المشرق ، كانت المنازعات تنذر بحل أوشاج تلك الرقعة الفسيحة الأرجاء في
المغرب . وقد حدث في تلك اللحظة الحرجة أن خسرت البلاد بموت « هشام »

حاكماً ، فاضلاً ، حذراً ، بالرغم مما كان عليه من ضعف المهمة وخور العزيمة .
وبويع بعده « الوليد بن يزيد » الذي كان يختلف عن سلفه كل الاختلاف ،
إذ كان متهتكاً ، خليعاً ، ماجناً ، سكيراً ، لا يهتم بالأوضاع الأخلاقية ؛ الأمر
الذي أدى إلى اشمئزاز الشعب منه ، ولهذا حاول سلفه أن يعزله من ولاية العهد
ويولى ابنه مكانه ؛ ولكنه عند ما فشل في ذلك سعى إلى تقويم أخلاقه ، غير
أن الوليد لم يلبث أن ترك العاصمة ساخطاً من تدخل الخليفة في شأنه ، وقصد
إلى موقع يسمى « بالأزرق » في الأردن ، وظل يتقرب موت عمه بصبر نافذ حتى
زفت إليه البشري التي طالما منى نفسه بها ، فأسرع إلى دمشق ؛ وكان أول
ما قام به بعد مبايعته بالخلافة أن طرد أسرة هشام من القصر ، ويقال إنه لم
يوافق على دفن الخليفة المتوفى إلا بتوسط أهله . ومما يؤثر عنه أيضاً أنه كان
صارماً مع أبناء عمومته مع ما كانوا عليه من الشجاعة ، وما لهم من الأيادي
البيضاء والبلاء الحسن في الممارك مع الروم . فهذه الأفعال وبأمثالها أوغر عليه
صدور المسلمين ، بالرغم من أنه حاول في أوائل عهده أن يستميل إليه الجنود بزيادة
رواتبهم ، ويتقرب إلى الشعب بتوزيع الجوائز عليهم ، كما زاد في أرزاق الفقراء
والعجزة ، ولكن هذا الكرم المصطنع لم يغن عنه فتيلاً ، نظراً لقسوته وتقلب
أهوائه وضعف أخلاقه .

أما « خالد » وإلى العراق السابق فكان يسكن دمشق منذ أن أطلق
« هشام » سراحه ، ولكن الوليد لم يلبث أن بعث به إلى عدوه « يوسف بن
عمر الثقفي » كما أمر في الوقت نفسه بإلقاء القبض على « يحيى بن زيد » فأخذ
يطارده حتى يئس الشاب من تلك الحياة ، وقام على رأس جماعة مسلحة مؤثراً
القتل في ساحة الوغى عن التسليم ليذبح ذبح الأنعام ؛ وقد قتل فعلاً كما أراد ،
واحتز رأسه وحمل إلى الوليد فأثار مصيره الحزن حماسة أهل خراسان ، وعمل
في تزعزع بنیان الدولة الأموية ، وأعلن الشعب عليه الحداد ، كما أطلق على من

ولد يوم وفاته في خراسان اسم « يحيى » . ولما أضرهم أبو مسلم نار الثورة بدعوى الانتقام لبیت الرسول انضوى هؤلاء تحت رايته متشجين بالسواد ، وهو اللون الذى اتخذ شعاراً للدولة العباسية ، ومما يؤثر عن « أبى مسلم » أنه نكل بجميع الذين اشتركوا في قتل « يحيى » من غير ما شفقة ولا رحمة .

انتخاب ثعلبة
في الأندلس

والآن بعد أن استعرضنا أهم الحوادث التى وقعت في المشرق نحول أبصارنا شطر الأندلس ، فنرى الخليفة هشام يصادق على ولاية ثعلبة . بيد أن هذا الحاكم الجديد كان متعصباً لليمانيين ، فثار عليه المضرّيون يؤازرهم البربر والمولدون ولكنهم سار إليهم بجيش كبير فهزموهم عند أسوار « مارده » ، ومزقهم شرمزق . ويقال إنه أسر منهم عشرة آلاف رجل عدل عن ذبحهم جميعاً في اليوم التالى إذ عند ما أيقن الأسرى أنهم — لا محالة — ملاقون حتفهم لاحت نجاة عن بعد راية الخليفة ، وأخذت تقترب منهم رويداً رويداً فاهتزت لها القلوب طرباً وابتهاجاً ، لأن اسم الخليفة بالرغم من الانحلال الذى بدا على الخلافة والتفكك الذى اعترى أجزاء الإمبراطورية في ذلك الحين ، كان لا يزال يحمل في أطوائه معاني التقديس والاحترام ، وكان اقتراب الراية التى أوقفت تنفيذ الحكم نذيراً بتعيين عامل جديد يدعى « أبى الخطار حسام الكلبي » وهو أيضاً بمنى الأصل أوفده حنظلة بن صفوان أمير أفريقيا بموجب أوامر هشام لنشر الأمن وتهدة الاضطرابات التى ثارت بين الحزبين المتنازعين .

دخل حسام قرطبة في شهر رجب سنة ١٢٥ هـ أى بعد خمسة أشهر من وفاة هشام ، ويحدثنا المؤرخون في هذا الصدد « أنه لم يكد يصل إلى بلاد الأندلس حتى جنحت جميع الطوائف إلى السلم وتصالح الثوار » . أما « ثعلبة » حاكم الأندلس السابق فقد أعلن طاعته وقفل راجعاً إلى الشام .

اشتهر « أبو الخطار » في بادئ الأمر بالعدل والإنصاف ، ولكنه مع ذلك لم يتخلص من النمرة القبلية ، فراح ينحاز إلى الحميريين في أسبانيا كما أهان

المضريين في شخص رئيسها فثاروا عليه واضطربت الفتن من جديد ، فاصطلى
القريقان بنارها بأشد من ذى قبل ، ووقعت معارك شديدة دامية في « شقندة »
على مقربة من قرطبة دارت فيها الدائرة على اليمانيين وقتل « أبو الخطار » ،
وعندئذ اختار المضريون « ثوابة بن سلامة » أحد زعماء اليمنية والياً عليهم ، وانتخبوا
له مساعداً اسمه الصميل . وقد ظل ثوابة متربعا في دست الحكم حتى وافته منيته
بعد سنتين و٦ أشهر ، فانتخب الجيش في مكانه بترشيح الصميل شخصا آخر
من أحفاد « عقبة بن الحجاج » فاتح أفريقيا ، يدعى « يوسف بن عبد الرحمن
القهري » ، فاستطاع أن يؤلف بين قلوب الطرفين ويخمد نار الفتن ، وبذلك
اضطلع بالحكم نحو من عشرين دون مصادقة خليفة دمشق على هذا التعيين
ودون أن ينازعه في حكمه أى منازع . ولكنه بالرغم من حنكته ومهارته ثار عليه
« عبد الرحمن اللخمى » حاكم « أربونة » الملقب (بفارس الأندلس) ، ولكن
هذا لم يعم أن قتل غيلة على يد أحد أعوانه . كذلك ثار زعيم آخر في « باجة »
وثالث في « الجزيرة » ورابع في « أشبيلية » ، ومع ذلك فقد نجح يوسف في
إخماد تلك الفتن . ولولا قدوم حفيد « هشام » الذى فر من وجه المباسمين عام
٧٥٥ ميلادية لأسس « يوسف » أسرة حاكمة تسمى باسمه ؛ ولكن وصول
ذلك الأمير الأموى غير مجرى التاريخ في تلك البلاد .

كان الأمير الأموى نشط الفؤاد إداريا بارعا ، أعانه اسم أسرته على اكتساب
ثقة الناس وعطفهم عليه فتغلب على جميع الصعاب ، وأسس في النهاية دولة
أموية جديدة في الأندلس .

وفى كان يوسف منهمكا في تسوية مشا كل البلاد الداخلية أغار يبيي
القصور — الذى كان يترقب تضعف قوة العرب — بجيش لجب على « لانبجوك »
« وسبمانية » وغربي « سافوا » ، وهى المدن التى كانت لا تزال في قبضة العرب
فأشعل فيها النيران ، ووثب بالمسلمين القاطنين فيها وفتك بهم حتى استباحات تلك

غزو المسلمين
في فرنسا

المدن الآمنة إلى ساحات واسعة للمذابح والتدمير ، فنجم عن هذه الأعمال الوحشية قحط مخيف هلك فيه عدد عظيم من الناس . وبالرغم من قلة عدد العرب وضعف شأنهم في جنوبي فرنسا وتآلب الأعداء عليهم فقد دافعوا دفاعا مستميتا طوال ثلاثة أعوام عن كل شبر من ممتلكاتهم . وفي عام ٧٥٥ م لم يبق في أيدي العرب غير مدينة واحدة اسمها « أربونة » كان قد حاصرها يبين مستعملا في إخضاعها ضروب الفتك والتدمير ، ولبت الحصار أربعة أعوام حتى انتهز نصارى المدينة ذات يوم فرصة إهمال الحراس ووثبوا بالمسلمين ثم فتحوا أبواب المدينة عنوة ، وفي الحال انقض الحاصرون البرابرة انقضا صواعق ، وأتخنوا في المسلمين رجالا ونساء وأطفالا حتى أفنوم عن آخرهم من غير ما شفقة ولا رحمة .

وهكذا أتح آثار المدنية في تلك المدينة وسقطت في دياجير الجهل الذي كان يسود أوروبا المسيحية في ذلك العهد . وبينما كان « يبين » يطارد جيوش المسلمين في فرنسا على هذا النحو ، أدت مشا كل العرب الداخلية في الأندلس إلى انسحابهم من المناطق الجبلية المتاخمة لخليج بسكاي ، حيث كان الثوار قد أسسوا نواة مملكة جديدة .

في أفريقيا

أما في أفريقيا فقد حكم حنظلة البلاد منذ انهزام البربر في القيروان بنجاح لم يسبق له مثيل ، واعترف له حتى البربر والخوارج بنبل القصد والعدالة وعلو الهمة فتمتت البلاد في ظله بنعمة الطمأنينة والعدل ، وزهت التجارة والصناعة ، غير أن أحد الموظفين المنفيين واسمه « عبد الرحمن بن حبيب » لم يعم أن أضرم نار الثورة في البلاد فعمت الفوضى والمنازعات . وفي عام ١٢٧ هـ قاد « عبد الرحمن » الثوار بنفسه في تونس وألقى القبض على الأشراف الذين كان « حنظلة » قد أوفدهم إليه ليردعوه عن غيه ، وسار بهم على رأس قوة كبيرة إلى القيروان مهددا بذبحهم إن هو استعمل معه القوة ، فروع « حنظلة » الذي كان يكره إراقة الدماء وانسحب إلى آسيا حيث اعتزل الحياة العامة . وما هي إلا برهة حتى

سقطت القيروان في أيدي ذلك الثائر الذي نادى بنفسه حاكماً عليها ، غير أن حكمه الذي لم يؤسس إلا على الخيانة والغدر ظل عرضة للثورات والفتن الداخلية ، ومع ذلك فقد ظل قابضاً على دفة الأمور بيد من حديد حتى فتك به أخوه عام ١٣٧ هجرية .

ولعل من الفائدة الآن أن نستعرض بإيجاز الحوادث السياسية التي أدت إلى سقوط البيت الأموي فنقول :

الوليد الثاني

كانت دمشق إلى ذلك الحين معقل الأمويين الحصين ، ومهما يكن من أمر خلفائهم وما كانوا عليه من نزعات وطباع ، فلم يحد قط أفراد هذا البيت عن ولائهم للخليفة ، إذ كانوا جميعاً يرتشفون في الطفولة لبان الإخلاص والولاء ويشبون على تقديس مصالح الأسرة ، أضف إلى ذلك شدة حرصهم على حفظ كيان بيتهم وصيانتهم مما يشين سمعته . غير أنه وقع في عهد الوليد الثاني حادث لم يسبق له مثيل قط في تقاليد ذلك البيت ؛ وتفصيل الخبر أن الوليد كان شغوفاً بالموسيقى وسباق الخيل ، وبلغ من حبه للطرب أن أهمل شؤون الدولة وشاركه في ذلك الميل بعض أفراد الأسرة بالرغم من سخط أنقياء العاصمة عليهم ، ولكن إسفافه وتحمديه لأبسط قواعد الأخلاق نفر منه حتى قلوب أخلص الأعوان ، وأبعد عنه معظم الأمراء ، كما أن إغضائه عن قاتل « خالد » حاكم العراق السابق في شهر محرم سنة ١٢٦ هـ أسخط عليه الخيريين في الشام ، فثاروا عليه ثورة هائلة بقيادة يزيد بن الوليد الأول حفيد عبد الملك ، وانضم إليهم أهل دمشق وحاصروه في قصره بقرية تعرف « بالبحراء » ، وقد حاول في بادئ الأمر أن يتفاهم معهم ولكنهم أفهموه أنهم يسخطون عليه لأنهما كرهتا في الملمات وتهتكته ، ثم كسروا أبواب القصر وهجموا عليه واحتزوا رأسه ، ثم نصبوه على رمح وراحوا يطوفون به في شوارع دمشق . فهذه الظروف التي أحاطت بمقتل الوليد ، وذلك

التمثيل الفاضح بجسمه أزالا القدسية عن شخصية الخليفة وقضيا على الاحترام الذى كان يحيط بمقامه الجليل .

يزيد الثالث
الملقب بيزيد
الناقص

وبعد مقتل « الوليد » ولى « يزيد بن الوليد الأول » قائد الثورة ، وكان تقيا ورعا متمسكا بأصول الدين ، سالم الطوية ، فأشار فى الخطبة التى ألقاها عقب مبايعته إلى أسباب خروجه على ابن عمه ، ووعد بأن أول ما سيعنى به هو تحصين الحدود ، وإقامة الحاميات فى المدن ، ورفع الظلم عن العباد ، وعزل الحكام الخائنين ، وقع الثورة فى حمص وفلسطين . ولو أنه عاش مدة أطول لبرهن على جدارته لهذا المنصب العظيم ، بيد أن مدة حكمه كانت قصيرة نشبت فى خلالها الاضطرابات وعمت الفوضى ، فلم تسمح له الفرصة بإدخال ما وعد به من الإصلاحات . وقد رفض مروان عامل أرمينيا فى بادى الأمر مبايعة الخليفة الجديد ، وأقبل على الشام متوقعا مهددا بأن يولى أحد أبناء الوليد الخلافة . ولكن يزيد استطاع أن يستميله ويمنحه ملك أبيه ، وبذلك انقلبت الآية فرج أبناء الوليد الثانى فى غيابات السجن ، كما عزل يوسف قاتل خالد من منصبه ، وعين عبد الله ابن عمر الثانى مكانه ، غير أن ناصر نائب الأمير فى خراسان أبى أن يطيع عبد الله أو يعترف بخلافة يزيد ، فأثر هذا الشلل الذى منيت به الإدارة على أنحاء الإمبراطورية ، كما عجزت عن تأديب « عبد الرحمن » الثائر فى أفريقيا ، وحتى الإصلاح الوحيد الذى قام به « يزيد » لم يكسبه إلا سخط رجال الجيش ، ذلك أن الوليد الثانى كان قد زاد فى رواتبهم ، ولكن يزيد لم يلبث أن أعادها إلى ما كانت عليه فى عهد « هشام » فلقبوه بالناقص ؛ وتوفى فى سنة ١٢٦ ، وكانت مدة ولايته ٦ أشهر .

إبراهيم بن الوليد

وبعد وفاة يزيد قام أخوه إبراهيم بالأمر من بعده ، ولكن سلطانه لم يمتد إلا على دمشق وضواحيها ، ولم يبق فى الحكم غير شهرين وعشرة أيام ، ولذلك لا يعده المؤرخون من جملة الخلفاء .

وقد خف مروان فى قوة مسلحة إلى دمشق لإيقاد أبناء الوليد من الحبس حتى انتهى إلى عين الجر، وهى بلدة صغيرة واقعة بين لبنان والشام على الطريق الممتد من بعلبك إلى دمشق، فقابله جيش جرار مؤلف معظمه من اليمانيين، ولكن جيش مروان كان قد تدرب على الفنون العسكرية فى حروبه الطويلة مع الجيوش البيزنطية والقبائل التركية، فهزم اليمانيين ومزقهم شرمزق، وهكذا أصبح طريق دمشق مفتوحاً أمام مروان. وبينما كان يقترب من العاصمة فرّ إبراهيم ومعاونوه الجلادون بعد أن فتكوا بأبناء الوليد لعلهم يوقفوا بذلك زحف مروان الذى جاء لإيقادهم، كما فتكوا أيضاً بقاتل خالد؛ ولهذا ثار أعوان أسرة الوليد وأخذوا يفتكون أتباع الخليفة «إبراهيم» وأخيه المتوفى، فقتلوا منهم عدداً كبيراً ونهبوا قصورهم ثم نشوا عن جثة يزيد الثالث وصلبوه على باب المدينة^(١)، ووقعت دمشق فى حالة مخيفة من الفوضى والارتباك حتى هرع أشراف المدينة يرحبون بوصول مروان الذى بايعوه بالخلافة رغبة منهم فى وضع حد لأعمال النهب والتخريب وإعادة البلاد إلى عهد الطمأنينة والسلام.

(١) لم تكن عادة نبش القبور مقتصرة على آسيا الحنب، ومثال ذلك أن قبر برسى هستبور نبش فى القرن الخامس عشر بأمر هنرى الرابع.